تدريس الجغرافيا بالمدرسة المغربية:
نحو مقاربة نسقية ديداكتيكية لتعلم التفكير الجغرافي بالتعليم الثانوي

الأستاذ جمال أمّاش*1*

تقديم

يبدو أن تدريس الجغرافيا اليوم بالمدرسة المغربية يعيش مفارقة كبيرة،بين هوية المادة كمادة علمية،تعرف تطورا ابستمولوجيا وأكاديميا،وكمادة ترتبط بالميدان تسعى من حيث معرفتها إلى تنظيم المجال، وبين ممارستها بالمؤسسة التعليمية ومكانتها في الهندسة البيداغوجية، وفي صورتها لدى المتعلم والأسرة والمجتمع،وهذا ما يتجلى من خلال ممارستها داخل الفصول الدراسية،حيث تسود العلاقة الأفقية على الاستدلال العقلاني لمنهجية التدريس،كما تحضر النصوص والشروح على الدعامات الإيقونية،الخريطة والصورة،وتسود المعارف الجغرافية الجاهزة على التساؤل والطرح الإشكالي لموضوعات الجغرافيا المدرسية.

أولا: المعرفة العالمة والمعرفة المدرسية

الاهتمام بتدريس الجغرافيا يعني الاهتمام بالفرق بين معرفة الباحثين والأكاديميين،وبين معرفة المدرسين والديداكتيكيين؛أي بين الجغرافيا العالمية والجغرافيا المدرسة من طرف الأساتذة،وبين هؤلاء وما يكتبه التلاميذ،وذلك عبر النقل الديدادتيكي على مستوى البناء والممارسة.أي أن النقل الديداكتكي يعني تكييف المعرفة العلمية وقدرات التلاميذ العقلية،وهو ما يقتضي اختيار المعطيات الجغرافية الأساسية من المعرفة العالمة عند تهييء الأنشطة والدروس.

1 - مفتش التعليم الثانوي مكلف بالتنسيق الجهوي التخصصي لمادة الاجتماعيات-أكاديمية مراكش تانسيفت الحوز.

1 / المضامين الجغرافية: المفاهيم والمعجم

يرتكز تدريس الجغرافيا المدرسية على مفهوم المجال الجغرافي، كمجال اجتماعي تحكمه مجموعة من العلاقات. وهو المجال الذي يسكن فيه الإنسان، وينتج ويستهلك ويتنقل فيه، كما أنه المجال الذي يهيئه الإنسان حسب حاجياته.ومن أهم المفاهيم،مفهوم المقياس الجغرافي ،مفهوم الوسط الطبيعي،المشهد الجغرافي،المسافة الجغرافية.وهو ما يتم الاشتغال في اكتساب بعض المفاهيم بالتعليم الثانوي الإعدادي مثلا (في معرفة العناصر الأولى للمجال بالسنة الأولى،وفي مكونات المجال الجغرافي والأنشطة البشرية والاقتصادية بالثانية إعدادي،ثم باكتساب مفاهيم اقتصادية لها علاقة بالتكتلات الإقليمية –المغرب العربي والاتحاد الأوربي،ثم في السنة الثالثة ،بالتعرف على بعض القوى الاقتصادية الكبرى كالولايات المتحدة واليابان وروسيا الاتحادية،وبعض البلدان السائرة في طريق النمو مثل مصر ونيجيريا.

2 - مرجعيات الممارسة الديداكتيكية

غالبا ما يتم الارتكاز خلال درس الجغرافيا حول تعلم بعض عناصر المقرر، باعتماد خريطة غالبا لتسمية بعض العناصر المجالية وليس للتحليل؛أو في قراءة صورة أو بناء وقراءة مبيان في أحسن الأحوال؛بينما الإشكاليات الجغرافية مبعدة،أي أننا نكون في إطار الجغرافيا ذات البعد الواحد،التي تميز الجغرافيا الكلاسيكية والتي كان يغلب عليها طابع الحتمية الجغرافية.

فالجغرافيا المدرسية ليست فقط معرفة أسماء المدن أو الجبال،أو أرقام إنتاج البترول أو القمح.. وليست محاولة فهم العلاقة الموجودة بين عناصر الوسط الطبيعي ومظاهر النشاط البشري،ولكنها دراسة ومعالجة القضايا المجالية،استنادا إلى المفاهيم المهيكلة للخطاب الجغرافي(التوطين –المورفولوجيا-الحركة)، وإلى النهج الجغرافي،وفق عمليات فكرية ترتبط بالوصف والتفسير والتعميم،خلال الاشتغال على الوثائق والدعامات التي يوفرها الكتاب المدرسي أو الدعامات، التي يعتمدها الأستاذ أو يهيؤها من مراجع خارجية،يستثمرها ويوظفها في الأنشطة والمقاطع التعلمية.

ثانيا: ضبط المقاربة الديداكتيكية لتدريس مادة الجغرافيا

1 - وظائف الجغرافيا

- ترسيخ الهوية والمواطنة و إمكانية التحكم في آليات التنمية المستدامة والتخطيط لها؛

- تنمية الفكر وحصر الموارد المجالية، والمساهمة في بناء مخططات إعداد التراب وتتبع التوازنات البيئية.

2 - كفايات منهاج الجغرافيا حسب الأدبيات التربوية

أ-التعرف على مكونات المجال الجغرافي: من خلال الربط بين معطيات التضاريس، المناخ، الغطاء النباتي، والمعطيات الاقتصادية والبشرية، أي الإجابة على أسئلة: أين؟ لماذا؟ كيف؟ ما العمل؟ وبالتالي اكتساب معارف ومعلومات وظيفية تتجلى في ما يلي:

- معرفة حد أدنى من أسماء الأماكن والمواقع؛
- اكتساب المفردات والمصطلحات والمفاهيم الجغرافية؛
- معرفة التوطين في المجال(وفي سياق الزمن).

ب-اكتساب المنطق الجغرافي:

أي القدرة على إصدار أحكام وتعقيبات منطقية،وتفسير الترابطات الجغرافية بكيفية منطقية(على مستوى توزيع الظواهر فوق المجال،أشكالها...)؛ولهذا المنطق الجغرافي هدفان:

- إعطاء الدرس طابعا علميا؛
- تنمية الفكر المنطقي في التحليل الجغرافي.

وينطلق إكساب المنطق الجغرافي من خلال التساؤل=أين؟ لماذا هنا وليس هناك؟؛ومن توطين الظاهرات الجغرافية،والبحث عن العلاقات و الترابطات المنطقية بعناصر أخرى من المجال المدروس،طبيعيا،اجتماعيا...

النهج الجغرافي

مرّ تدريس الجغرافيا من جغرافيا وصفية تعتمد منهجا صوريا وغير محدد، إلى علم للأماكن تحفظ في الذاكرة لأسماء الأماكن حسب «فيدال دو لابلاش» إلى جغرافيا تعتمد في تدريسها بيداغوجيا الاكتشاف، التي تشتغل بعكس المقاربة الموسوعية للمعرفة.

وخلال تدريس الجغرافيا بالفصول الدراسية يجب أن يثير المدرس تفكير التلاميذ، من خلال الانطلاق من طرح إشكالية تحفز على التفكير وعلى حل المشكل المطروح، فالتدريس الذي لا

يطرح الإشكالات يفقد المعنى، إذ يصبح العالَم مُسطحا، والجغرافيا التي تشتغل على الوصف وتخاطب الذاكرة بدون العمل على تكوين العقل تصبح لا فائدة منها.

خطوات النهج الجغرافي:

أ-الوصف الجغرافي:

يهتم باستخراج خصائص الظاهرة(الكمية والنوعية)؛ ووصف التوطين أو التوزيع الجغرافي للظاهرة المدروسة؛ثم وصف الحركة، حركة تطور الظاهرة الجغرافية في الزمن والمكان.

- مراحل الوصف:

-التحليل: رصد مكونات الظاهرة عبر(التفكيك-التصنيف-الترتيب)؛

-التركيب: جمع مكونات الظاهرة من خلال خصائص كل مكون لإبراز مميزات الظاهرة؛

-التقييم: حصيلة الربط بين التحليل والتركيب،وهو عملية انتقائية للعناصر الأساسية لمكونات الظاهرة الجغرافية المدروسة ولخصائصها.

ب-التفسير الجغرافي

الجغرافيا علم الملاحظة والاستدلال؛وتعنى بتفسير مكونات المجال؛كما تهتم بالبحث عن الأسباب التي ولدت الظاهرة الجغرافية المدروسة؛وترتبط عملية التفسير ارتباطا قويا بطبيعة الكيان المدروس وبالمفاهيم المهيكلة للخطاب الجغرافي(المورفولوجيا-التوطين-الحركة)؛وينطلق التفسير الجغرافي من خلاصات الوصف،حيث يتم الانطلاق من صفات الظاهرة المدروسة ومن البحث عن صفات الظاهرة المفسرة؛كما يربط التفسير بين الظاهرتين المفسرة والمفسرة؛ومن التعميم الذي يمد التفسير بمرجعية نظرية تفسر الظواهر المجالية.

ج- التعميم الجغرافي:

يعتبر التعميم ذو أهمية بالغة في فهم المجال،وفي إنتاج وتوظيف مفاهيم أو مبادئ ونظريات تساعد الجغرافي في عمليتي الوصف أو التفسير؛كما يسهم اعتماده في تجاوز الحالات الخاصة إلى ما هو عام وكوني(الوصف والتفسير هيكل والتعميم روح).وتتبلور أهميته خاصة في إعطاء المشروعية العلمية للمادة، أي إنتاج مفاهيم مبادئ ونظريات،وأجهزة نظرية تساهم

في الوصف والتفسير لظواهر أخرى. والتعميم يوظف أو ينتج مفاهيم توظف أكثر في عملية الوصف ،أما والمبادئ والنظريات فتوظف أكثر في عملية التفسير.

ثالثا- نحو ممارسة جغرافيا نسقية ديداكتيكية

ينطلق تدريس الجغرافيا الجديدة اليوم من مجموعة من المبادئ والمنطلقات،كما يستهدف تحقيق الأهداف الآتية:

1 / تعلم المجال الجغرافي:

تستهدف الجغرافيا الجديدة تعليم التلاميذ تحليل المجال بعناصره البشرية تاريخيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.

ويقتضي تعلم المجال الجغرافي تعرف المجال المرئي الذي يمثله المشهد الطبيعي، وبالتالي تعرف العلاقات بين الوسط البيوفزيائي ومحيطه البشري، والتساؤل حول درجة أنسنة الطبيعة من طرف الإنسان وحول الكيفية التي يحافظ بها السكان على موروثهم الطبيعي. لكن المجال لا يختزل في الجانب المرئي-أو المشهد الجغرافي، حيث هناك مجال مجرد ،بإمكان التحليل والخطوات المنهجية إبرازه، أي ما يعني المجال المبنين-أو المنظم(مثلا التيارات والشبكات المرتبطة بالظواهر السوسيوسياسية وبالتنظيم الذهني للأفراد).

2 / تعلم التفكير المجالي ومفهمته

أي أن يكون المتعلم في قلب العملية التعلمية التعليمية، من خلال الوضعيات التعلمية التي يتم الاشتغال عليها بين الأساتذة والتلاميذ، وبالتالي العمل على بناء التلاميذ لمعارفهم ومهاراتهم الجغرافية أثناء الأنشطة التعلمية لتعلم التفكير المجالي ومفهمته، وذلك عبر ما يلي:

- تنويع التمشيات (الطرق)المنهجية التي تساعد على تنمية العمليات الفكرية، من خلال بناء مفهوم الوسط الجغرافي عبر التمفصل بين الملاحظة المباشرة وغير المباشرة، خلال مقطع تعلمي معين ؛

-تنويع الاشتغال داخل الوضعيات التعلمية خلال مقطع، درس أو سنة دراسية، بالانطلاق من المجال المعيش،و بالعمل على عدة مقاييس من هنا ومن هناك ، باعتماد المبيانات وبالانتهاء بطرح أسئلة تفتح على امتدادات أخرى .

3 / تعلم التفكير النسقي للمجالات الجغرافية

إذا كانت الجغرافيا تستند إلى تعلم الملاحظة والوصف، فإنها يجب أن تستهدف تعلم التفكير الشمولي للظواهر الجغرافية،باعتماد المقاربة النسقية ،أي إبراز التعالقات و الترابطات بين المكونات البيوفيزيائية والعناصر السوسيوقتصادية للأنظمة المجالية.

4 /تعلم التعلم الذاتي

تدريس الجغرافيا الجديدة وفق المقاربة الجديدة المعتمدة مدخل الكفايات،يدفع التلاميذ للتعلم الذاتي من خلال التركيز على المكتسبات الأساسية المرتبطة بالمعارف والمهارات والمواقف،ومن بين المكتسبات الأساسية في الجغرافية:معرفة التفكير الجغرافي،أو معرفة الأبعاد المجالية للمشكلة بمقاييس ومستويات مختلفة(إيف لاكوست1986). وإذا كان الهدف هو التعلم الذاتي بجعل المتعلم مستقلا بذاته(التعلم مدى الحياة)،يتحتم اعتماد مقاربة بيداغوجية وطريقة ديداكتيكية متناسقة ومتكاملة،تستحضر البعد الابستمولوجي لمادة الجغرافيا،والبعد التربوي في تنمية شخصية المتعلم وتربيته على الفكر الجغرافي والمجالي،ثم البعد الديداكتيكي المرتبط بالممارسة التعلمية في الفصل الدراسي.

وهذا الاختيار يغير دور الأستاذ(المدرس)،كما يغيرالعلاقة بينه وبين المتعلم، و يحول الديداكتيك (التدريس) إلى استراتيجية عمل ضرورية، للوصول إلى حلول مناسبة وفعالة، حتى نحد من الأزمة الظرفية والهيكلية-البنيوية لنشر المعرفة الجغرافية(دوديل 1927 - ،ص227)؛وبالتالي تهيئة المتعلم للانخراط في الحياة(برناديت شوماكير) لفهم التباينات المجالية،والمساهمة في تنظيم المجال(الخاص والعام) وفي تهيئته و تطويره والحفاظ عليه.

على سبيل الختم :

لا يمكن تجاوز أزمة درس الجغرافيا في المدرسة المغربية،إلا بخلق الشروط الموضوعية للتدريس،ممثلة في تقليص عدد التلاميذ بالأقسام وخلق فضاءات تربوية مناسبة،وتوفير الوسائل والدعامات التعليمية أولا،ثم بضخ جرعات إضافية في الممارسة الديداكتيكية،ثانيا وذلك بتدقيق طرق التخطيط والاشتغال والتقويم،وبالتركيز على تعلم التفكير الجغرافي،ككفاية يجب الاشتغال عليها وتنميها،خلال مختلف أسلاك التعليم،بشكل متدرج وبنائي،بالإضافة إلى خلق شروط التربية المجالية،سواء على مستوى تكييف المنهاج،أو على مستوى الحياة المدرسية،لخلق الرغبة في التعلم لدى التلاميذ.فالجغرافيا ليست أسماء وأماكن طبيعية،ولكنها تعلم التلاميذ لدرس الحياة بمقاربة نسقية في مجالات اجتماعية منظمة مختلفة.

المراجع المعتمدة

- التوجيهات التربوية لمادة الاجتماعيات بالتعليم الثانوي الإعدادي والتأهيلي،2007 ؛
- الإطار المرجعي للتقويم لمادة الاجتماعيات بالتعليم الثانوي الإعدادي2011 ؛
- مصوغة خاصة بمادة الجغرافيا:»تخطيط وضعيات تعليمية استنادا إلى المرجعية الديداكتيكية،2010 ؛
- برناديت ميرين شوماخير،ت:مولاي مصطفى البرجاوي:»الطرق الجديدة لتدريس الجغرافيا بالتعليم الثانوي،2013 ؛
- Anne LE Roux : »La formation des enseignants aux didactiques disciplinaires :de nouvelles probématiques ?L'exemples de la geographie,le cas français »,2001 ;
- Anne le roux : »enseigner la geographie au collége,1995 ;
- Philippe Perrenoud : « La geographie scolaire entre deux modéles de transposition didactique »,1990 ;
- Yannick Mével,Nicole Tutiaux-Guillon : « Didactique et enseignement de L'histoire-Géographie au collége et au Lycée »,2013 ;